محمد الماغوط

تشبث بموتك أيها المغفل
دافع عنه بالحجارة والأسنان
والمخالب
فما الذى تريد أن تراه ؟
كتبك تباع على الأرصفة
وعكازك بيد الوطن
أيها التعس فى حياته وفى موته
قبرك البطىء كالسلحفاة
لن يبلغ الجنة أبدًا
الجنة للعداءين وراكبى الدراجات

من قصيدة
(إلى بدر شاكر السياب)

مغنى الصحراء

الشعر.. الشرطة.. والكلاب !

ليس هذا حوارًا ...

بعد أن قاطع صاحبه كل الأسئلة ، قافزًا فوق الموضوعات وفوق الكلام . . مشغولاً بهاجسه الكابوسى حيث الشرطة والكلاب والطوفان والفيضان والحريق . يزورونه كل يوم .

« كابوس كرّهنى عمرى . وما فى غير أن أشرب وأشـــرب .. لكن أشد ما يخيفنى فيه أن أعود إلى بيتى يومًا فأجد أن كتبى جميعها قد سرقت » .

إنه بعض ضيق محمد الماغوط(*) . . .

بعض اكتئابه . . .

وبعض محبتنا الشديدة له ولشعره . . .

* * *

كانت الغرفة مظلمة تمامًا . الواحدة ظهرًا . . النوافذ مغلقة . بعض الملابس متناثرة على المقعد ، بينما (الكنبة) الواسعة التى يجلس عليها ، على طرفها الأول وسادة وعلى طرفها الآخر (لحافًا) تدلى نصفه على الأرض . وعلى الطاولة المستطيلة أمام (الكنبة) كأس من الويسكى وبضعة أطباق من الفستق وطفايات سجائر امتلأت بأعقابها . .

عندما ضغطت على جهاز التسجيل ، انتفض صارخًا في وجهى :

تسجيل لا . .

(*) جريدة أخبار الأدب - القاهرة - ٦/ ٥/ ٢٠٠١م .

يذكرنى بالشرطة والمحققين والمخابرات . .

اكتبي ما تشائين ، لكن لا أسئلة . ولا تسجيل . . !!

بداية مزعجة للغاية ، استعنت فيها بالشاعر ممدوح عدوان (صديقًا للماغوط) ليمنحه بعض الاطمئنان . .

قال ممدوح : هناك فرقة مسرحية باللاذقية تنوي تقديم (العصفور الأحدب) وقد طلبوا منى إعدادها . هل تسمح بتدخلاتى ؟ :

- افعل ما تشاء . .

- قلت تشرب فى الصباح ؟

أحب أن أشرب ، لكن عندما مررت بتجربة الإدمان ووصلت إلى حافة الموت كان لابد لى أن آكل ، وأن أضع الأكل فى (البراد) .

- من يصنع لك الطعام ؟

آكل عندما يأتى الأصدقاء بالطعام .

- تعانى الوحدة ؟

أبدًا . أذهب إليها . . كم تمنيت أن لا يعرفنى أحد ، وأن لا أعرف أحدًا . لكن بعد زواج بناتى ومرضى صرت أخشى . . لا أخشى الموت ولكن أخاف مقدماته . العجز والمرض .

- ومن أين تعيش حياتك ؟

من راتبى بمديرية الثقافة وكتاباتى فى (**الوسط**) .

(مد يده ممسكًا بالعدد الأخير من مجلة (**الوسط**) ، وراح يقرأ بصوت مرتفع مقاله الأخير فيها . .

أفتح جهاز التسجيل فينتفض مرة أخرى . .

أقول : لماذا تفعل ذلك . أريد فقط أن أحتفظ بصوتك . . يهدأ قليلاً من حيث أعجبه التقدير الذى يستحقه .

- يعجبك صوتك ؟

أنا بدوى ، جبلى أغنى فى أوركسترا الصحراء ويعجبنى صوتى .

- ونحن أيضاً .. كيف تقرأ الآن ؟

الآن لا أقرأ . . أو على الأقل أقرأ بصعوبة . أمامى كتاب منذ أكثر من ١٠ أيام ، أفتحه كل يوم ولا أقرأ شيئًا .

فى فترة من الفترات قرأت كثيراً ، خصوصًا فى السجن ، كان زكريا وسنية (يقصد زكريا تامر وسنية صالح) . . كانوا دائمًا يأتون إلىَّ بكتب كثيرة . قرأت فى إحدى الحبسات ٢٥ ألف صفحة . . الآن لا أقرأ لأنى كسول وملول .

- أيضاً لا تقرأ شعرك فى الندوات العامة ؟

طوال عمرى لا أقرأ شعرى فى ندوات أو أمسيات عامة . يمكن حدث هذا مرة أو مرتين على الأكثر . . ويحدث بسرعة شديدة لأنى أريد أن أخلص وأنتهى .

- ضيق حتى فى شعرك ؟

ليس لدى خلق لأبحث عن (**قافية**) (**وبيت**) . يمكن كتبت قصيدتى من باب ضيق الخلق . . لأنى ضقت (**بالوزن**) (**والعمود**) (**والقافية**) .

- مزاجك سوداوى ؟

دائمًا . . أنا صاحب مزاج سوداوى لأنى من مدينة هدمت ١٠٠ مرة . .

(**السلامية**) معقل القرامطة حتى المتنبى .

- أظن أن تجربة السجن أيضاً تركت بصماتها بوضوح ؟

فكرة السجن أكثر من مرعبة . .

أتحدى أى إنسان ، يدخل السجن ولو يومًا واحدًا . وينساه . . نحن جيل دُشِّنَ فينا الإرهاب السياسى .

- كم مرة سجنت ؟

كثيرًا . . فى المرة الأولى أيام مقتل عدنان المالكى واتهام القوميين السوريين .

- تكوينك يتناقض وفكرة الانضمام للأحزاب . فكيف تجربتك الحزبية ؟

تجربة مضحكة . . كان عمرى ١٣ عامًا . . وبرد ومطر فى (السلامية) .

قالوا إن هناك أحزابًا جديدة قادمة إلى البلدة . . سألت ما هى المواصفات ؟ قالوا حزب (**البعث**) بعيد عن بيتنا ، وليس لديه صوبًا (**مدفأة**) بينما الحزب القومى السورى كان قريبًا ويمتلك (**صوبا**) . . !

- بسبب صوبة ؟

هذا ما حدث .

- تكتب بشجاعة .. تشعر أن اسمك يحميك ؟

أبدًا تلك طبيعتى ، فأنا لا أعرف الكذب ولا أخشى شيئًا . ثم إن عندى نوعًا من الخيال ، وخبرة ٥٠ عامًا تجعلنى أكتب ما أريد .

- **تعرف لمن تكتب .. أقصد تعرف جمهورك ؟**

عندما أكتب ألغى ذاكرتى نهائياً . . مش مشغول بيمين أو شمال . . لكن غالبية جمهورى من الطلاب والموظفين والطبقة الكادحة .

(علق ممدوح عدوان ضاحكًا يعنى شيوعى مش قومى سورى) !

- **كيف تعرفت نفسك شاعراً ؟**

لم أتعرف . . لكن من استمع إلى شعرى قال : لابد أن ينشر . . نشرت وإذا بهم يورطونى بقولهم شاعر . .

أول ما التفت إلى شعرى كان نزار قبانى ،زكريا تامر وسعيد الجزائرى فى مجلة (**النقاد**) .

- **بالخمسينيات ؟**

نعم . . كنت مجندًا ولابس (شورت) عندما رأيت نزار قبانى . أول مرة . . قال لى : « اللى بتعملوه شىء حلو » .

- **هذا أسعدك ؟**

جدًا . . لكن أكثر من أثَّرَ فى كان (سليمان عواد) ، شاعر مات بالسبعينيات .

- **وزكريا تامر .. هناك ارتباط عميق بينكما ..**

قاطعنى : بدأنا بالخمسينيات ٥٦ ، ٥٧ أيام كان المعلمون فى الساحة الثقافية على الجندى ، وشوقى بغدادى وسعيد حورانيه . لكنهم كانوا جميعًا محشورين بالأيديولوچيا .

واحد منهم قال لى : (من هذا الفلاح القادم من أعماق الريف ليعطينى دروسًا فى الشعر) . . وكان التعليق مليئًا بالسخرية وليس بالاعتراف .

* * *

على غلاف الصفحة الأخيرة من رواية زكريا تامر (**النمور فى اليوم العاشر**) الصادرة ١٩٧٨ كتب محمد الماغوط .

« بدأ زكريا تامر حداداً شرسًا فى معمل ، وعندما انطلق من حى (البحصة) فى دمشق بلفافته وسعاله المعهودين ليصبح كاتبًا ، لم يتخل عن مهنته الأصلية ، بل بقى حداداً وشرسًا ولكن فى وطن من الفخار . . لم يترك فيه شيئًا قائمًا إلا وحطمه ، ولم يقف فى وجهه شىء سوى القبور والسجون لأنها بحماية جيدة .

عندما يأتى القارئ إلى نهاية هذا الكتاب العجيب ، يشعر أنه محاصر كالقلم فى مبراه ، وأنه عار من كل شىء فى أقسى صقيع عرفه القدر ، ولا يملك شيئًا سوى راحتيه يستر بها وسطه وهو فى وقفته المطلة والمخجلة تلك على رصيف المئة مليون أو أشبه ، لا ينقصه إلا إطار فى قاعة محاضرات ، وبحاثة فى علم بقاء الأنواع يشير إليه بطرف عصاه أمام طلابه ويقول : قد كنا ندرس يا أولادى من قبل كيف يتطور المخلوق البشرى فى مناطق كثيرة إلى إنسان ، والآن سندرس كيف يتطور المخلوق البشرى فى هذه المنطقة من إنسان إلى قرد ، وأهله وحكامه يتفرجون عليه من النافذة وهم يضحكون » .

- منذ البداية ماذا كان مشروعك بماذا كنت تحلم ؟

لم يكن لدى مشروع ثقافى . . لم يكن لدى نظرية ولا حلم أريد تحقيقه . . لم أحلم يومًا أن أكون مثل شوقى أو حافظ إبراهيم . . أنا فقط أخربط . ولا أسمى ما أكتبه .

- البعض رأى أن قصيدة النثر ذات مرجعية غربية فرنسية تحديداً .. بينما البعض الآخر يبحث عن امتداداتها فى التراث .. ؟

لا تسألينى نظريات .

لا أريد أسئلة وإجابات . . أنا لست مثقفًا وشهاداتى متوسطة زراعية .

ولا أعرف لغات . . وبهذا أعتبر أن الله رحمنى من كل هذا العبء .

* * *

فى مقدمة الأعمال الكاملة لمحمد الماغوط كتبت سنية صالح :

« إن موهبته التى لعبت دورها بأصالة وحرية كانت فى منجاه من حضانه التراث وزجره التربوى، وهكذا نجت عفويته من التحجر والجمود وكان ذلك فضيلة من الفضائل النادرة فى هذا العصر » .

* * *

- فى مقدمة ديوان (لن) كتب أنسى الحاج بيانه النظرى لقصيدة النثر .. أين كان بيانك ؟

أنسى كان واضحًا فى مشروعه .

أنا كل ما كان يشغلنى دائمًا هو (**البراد**) الأكل . . بينما كل من حولى يتكلمون عن (**ازراباوند**) (**والشعر**) (**والنظرية**) . .

التنظير عمره ما كان يهمنى ولا الكلام .

أنسى أيضًا كان قليل الكلام فى اجتماعات (مجلة شعر) . كنا أكثر الناس صمتًا . . كنا تلاميذ أمام الأساتذة الكبار يوسف الخال وأدونيس .

- **ولايزالون أساتذة ؟**

لا . .

لكن يوسف الخال مختلف عن أدونيس . . إنسان ، غنى داخليًا . فكر وعلم وثقافة . . مرة كنت أعلمه (التسكع) وهو الأرستقراطى « اللورد » قلت له حل عن السيارة ، إذا كنت شاعراً فلابد أن تتسكع .

قرأ لى قصيدة فى بيروت ، فطلب من أدونيس أن يتعرف علىّ وطلب منى قصيدة . .

قلت له : بكره وكتبت له فى الليلة نفسها (**الحزن فى ضوء القمر**) .

- **يا سلام !**

أعطانى ٧٥ ليرة وقال لى لا تفعل أى شىء إلا الشعر . .

وكتب عنى :

(كلنا كنا نحلم بالشعر . . لكن الوحيد الذى جاء إلينا كآلهة اليونان هو الماغوط) .

- لديك حساسية مفرطة فى استخدام اللغة ..

بالفعل عندى حساسية بتجاور الألفاظ جنبًا إلى جنب فى إيقاع معين . فى ذاكرتى جرس (يرن) لو كان هناك خطأ . . لكن طوال عمرى مشكلتى ليس فيما أريد أن أكتبه ، ولكن فى كيف أكتبه .

- (الصورة) هى العنصر الأقوى بقصيدتك ؟

لأن (المكسح) قوته فى يديه (والأعمى قوته فى سمعه كانت قوتى هى(الصورة) لأنى لست مثقفًا .

لجأت إلى (الصورة) إلى الشىء البصرى وليس إلى الشىء الفكرى لأنى أفتقد الثقافة ، يعنى لو درست وتثقفت كنت أكتب مثل أدونيس .

- تعجبك قصيدة أدونيس ؟

لا أحب القصيدة الفكرية ، لو عندى فكرة أكتبها فى مقال . .

أدونيس يكتب أفكارًا ، كل شعره فكر يعرف البداية ، يعرف إلى أين يذهب وكيف يسير . . منظم ومرتب .

شعره القديم أحبه لأنه كان فيه معاناة ، أما شعره الحالى فلا أفهمه .

تدخل ممدوح عدوان ليسأله : أدونيس يراك رومانسيًا ؟

شو ما أحلاها ! !

- شباب الشعراء حتى المستدين فيهم على قصيدتك يرونك الآن تقليديًا .. حداثتك شكلية بينما بنية القصيدة، اللغة، الموسيقى، العاطفة ، الصورة .. جميعها تنتمى إلى القصيدة التقليدية .. هذا رأى البعض منهم ؟!

هذا لا يغضبنى .

- **وأنا لا أريد إغضابك .. فقط دفعك للكلام ؟**

وأنا لا أريد أسئلة !

- **عندما تظهر أجيال جديدة من الشعراء هل تشعر بالزمن ؟**

الزمن لا أفكر فيه على الإطلاق إلا بعد زواج بناتى ومرضى .

- **أقصد على المستوى الثقافى ؟**

يجوز أن هناك شعراء جددًا . لكنى لا أعرفهم . . لأنى لم أعد أقرأ .

- **تضيق لو سألناك عن سنية صالح ؟**

لا ، لكنى لا أعرف أن أتكلم عمن أحبهم . . يمكن عمن أكرههم أستطيع .

أحيانًا أرى نفسى بريئًا . . لكن الشخص إذا كان (**جبانًا**) ربما استوعبه، وإذا كان (**كاذبًا**) أو (**لئيمًا**) أو (**بخيلاً**) أيضًا استوعبه واحتمله . . لكن إذا لم أعد أحترمه لا أتعامل معه على الإطلاق .

- **فى حياتكما هل كنتما متفقين ؟**

فى حياتى لم أتفق معها على رأى أبدًا . . لكن هناك نوع من الألفة أكبر من الصداقة والحب .

نحن من عالمين مختلفين تمامًا . . عالمها رومانسى حالم روحانى ، صوفى ، صادق . بينما كل شىء عندى الوحل والأرصفة والشوارع والبول والسواد والقمورة .

كان سعيد عقل يغضب من رائحة البول فى القصيدة . . قلت له : حتى البول والبراز كلمة شاعرية لكن المهم كيف تستخدمها قال : معك حق .

- كيف تعرفت بسنية ؟

فى بيت أدونيس فى بيروت .

كنت أتناول (الغداء) عند خالدة سعيد (أخت سنية) ، وكنت ناشراً لقصيدة جديدة ، أعجبت سنية التى كانت ترانى للمرة الأولى .

- كان ذلك بالستينيات ؟

نعم وكنت أشتغل (**بالرأي العام**) بعد ذلك أرسلت (خالدة) أختها (سنية) حتى أقدم أوراقها إلى الجامعة بدمشق ، وتوسطت غادة السمان حيث كان يعمل أبوها بالجامعة . . وسارت العلاقة وتزوجنا .

- شعرياً كيف تراها ؟

قوة مهولة . .

لو قرأت ديوانها (ذكر الورد) نجد شاعرة كبيرة . . بل هى أكبر شاعرة عربية . لا نازك ولا غادة السمان ولا أى واحدة على الإطلاق .

- ولماذا لم تحقق شهرة ؟ أقصد لم يتم تقييمها نقدياً بما يليق بمكانتها ؟

يمكن اسمى طغى عليها !

كان رأيها جوهرياً . . فإذا كتبت شيئًا وترددت أمامه ولو لحظة . كنت أمزقه أو أعيد كتابته من جديد . أيضًا كانت الوحيدة التى كان (أدونيس) يخشى رأيها .

مقهى الشام

- أخرى تحبها .. سعاد حسنى .. التى فجرت يومًا لك أزمة حين نشرت إحدى الصحف على لسانك أنه لا يوجد فى مصر سوى سعاد حسنى ؟

كنت أتكلم تحديداً عن السينما . . لكن الجرائد تفعل ما تريد .

- تعانى الآن هى أيضاً من الاكتئاب . وحيدة فى لندن ؟

شىء مؤسف . . هى التى منحتنا كل الفرح .

كنا فى القاهرة أيام فيلم (التقرير) . . دعانا يوسف إدريس ، فجاءت جلستى إلى جوار سعاد حسنى . يومها قال لى حسين فهمى إنى أحسدك . . لقد مثلت معها أجمل الأفلام، ورغم ذلك لم تجلس بجانبى .

بعدها كنت معزومًا عند (شريهان) ، ورأيت سعاد حسنى فى اليوم نفسه ، ودعتنى إلى سهرة فاعتذرت لارتباطى بالموعد السابق . . قال لى صديق : حد فى الدنيا تدعوه سعاد حسنى ويروح لشريهان .

- فعلاً عنده حق ..

* * *

فى الثامنة صباحًا

رحت أفتش عن الماغوط فى مقهى الشام بوسط المدينة . . اعتاد منذ زمان أن يتناول قهوته ، ويقرأ جرائد الصباح كل يوم من الثامنة إلى التاسعة، قبل أن يبدأ رواد المقهى (خاصة المثقفين منهم) فى الحضور وإزعاجه .

- **صباح الخير يا أستاذ محمد استيقظت مبكراً لأبدأ صباحي بك .**

صباح الخير . . اجلسي .

أرجو ألا يكون في كلامي أية إساءة إلى سعاد حسني ؛ لأني أحبها .

- **ومن الذي لا يحبها . اطمئن .**

- **مبروك كتابك الجديد .. لكن لماذا غيرت عنوانه من (شرق عدن غرب الله) إلى (سياف الزهور) ؟**

أنا لم أغير شيئًا لكن ما حدا كان يقدر ينشر العنوان الأول .

- **تقبل تدخل الرقيب في شعرك ؟**

عنوان الكتاب ممكن . هذا حق الناشر . . لكن القصيدة لا .

* * *

صدور كتاب للماغوط حدث مهيب . . ومن قبل كان صدور الأعمال الكاملة حدثًا أكثر مهابة وإرهاقًا . . يكتب ممدوح عدوان :

« إن صدور مجموعته الكاملة حدث مهيب ، وإرهاق سادي إذ من سيطيق أن يغامر بقراءة عذابات الماغوط دفعة واحدة ؟!

كم تستغرق منك قراءة المجموعة الكاملة ؟ يومًا ؟ شهراً ؟ سنة ؟ تصور أنك ستتحمل في مدة قصيرة كهذه عذابات رجل ، كان يتألم عن أمة كاملة . . وقد ظلت روحه تئن تحت هذه العذابات طوال خمسين عامًا حتى نخخت قلبه وجسده . .

اقرأ دفعة واحدة إن رغبت ، ولكن أحذر القرحة . . والرقابة » .

* * *